لم يفرغ من إناء إلى إناء

"مستريح موآب منذ صباه وهو مستقر على دُرديه ولم يفرغ من إناء إلى إناء ولم يذهب إلى السبي. لذلك بقي طعمه فيه ورائحته لم تتغير" (إر٤٨:١١). هكذا وصف إرميا النبي حال موآب. وموآب هذا يمثل كل من يستكين للبقاء في "منطقة الراحة" Comfort zone التي يعرِّفها علماء النفس على أنها المساحة التي يحصر فيها الشخص سلوكياته بحيث لا يشعر داخلها بالتوتر والقلق بسبب إعتياده على ممارستها ضمن إطار روتيني محدد. تكمن خطورة الإنحصار في منطقة الراحة في أن الروتين الذي تتميز به يولد لدى الشخص تكيّفاً ذهنياً يعطيه شعوراً زائفاً بالأمان وفي نفس الوقت يحد من قدرته على التقدم والإبداع. أي أن هذا الشخص يرفض التغيير ويستكين إلى الروتين لكي يحافظ على أمان زائف ويتجنب توتر محتمل مما يؤدي إلى بتر نموه وتقدمه.

كلمة دُرديه هي في الحقيقة كلمة معبرة جداً عن الآثار السلبية للكمون داخل منطقة الراحة. فالدُردي هو كل ما يبقى راسباً في أسفل الإناء من الكدر. بالتالي يكون المقصود من عبارة: "مستقر على دُرديه" أنه مستقر استقراراً زائفاً حيث يكون منخدعاً بأن كل شيء على ما يرام بينما يكون الكدر والعكر والرواسب قابعين في أعماق نفسه. ولعل موقف شعب بني إسرائيل من الخروج من أرض مصر، التي تمثل منطقة راحتهم، إلى أرض الموعد هو أوضح مثال في الكتاب المقدس على هذا الإستقرار الزائف غير الواقعي *"ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية"* (خر١٤: ١١-١٢).

الخروج خارج حدود منطقة الراحة تلك يحتاج إلى شجاعة يفتقدها الكثيرون. إنها شجاعة إماتة الذات التي تطلب كل ما يريحها وتهرب من كل ما يؤلمها. لكن الله الذي هو الطبيب الحقيقي لأنفسنا وأرواحنا وأجسادنا يعلم مدى الخطورة الروحية والنفسية الكامنة وراء بقائنا في تلك المنطقة وبالتالي تتعمد عنايته أن تدبر لنا أحداثاً في حياتنا "تفرغنا من إناء إلى إناء". وهو إذ يكسر لنا حدود أماننا الزائف يساعدنا على التخلص من كل الكدر الروحي والنفسي المترسب خفية في أعماق إنساننا الداخلي. فالإنتقال من بلد إلى بلد، من عمل إلى عمل، من وضع اجتماعي إلى وضع اجتماعي آخر، من صحة إلى مرض، من صحبة إلى وحدة، من زواج إلى ترمل...إلخ هي كلها أمثلة على "الإفراغ من إناء إلى إناء". إنها المصفاة التي يستخدمها الروح القدس في تصفية كل شوائب إنساننا العتيق من نفوسنا *"لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل هذا بل تكون مقدسة وبلا عيب"* (أف٥:٢٧).